المرجعيّة الدينيّة منهجية الإسلام الأصيل

م. حيدر محمد هناء الشلاه

جامعة بابل / كلية العلوم الإسلامية/ قسم علوم القرآن

المقدمة

الحمد لله الذي نهج لعباده سبيل الخير والصلاح، وأمرهم باتباعه لنيل الفوز والفلاح، وصلى الله على أفضل الخلق محمد أنيس النفوس والأرواح، وعلى آله الطيبين الطاهرين كلما أظلم ليل وأضاء صباح.

وبعد، فإن الله تعالى تفضل على عباده أن جعل لهم أنبياء وأئمة هداة وأدلاء على الحق والخير والعدل والهدى ودعاة إليه، وكان أهم ما ثبته هؤلاء الهداة (عليهم السلام) بعد الدعوة إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، تحديد ضوابط الدولة الإلهية العادلة، وكشف الزيف والظلم والطغيان الذي مارسته أئمة الجور، وحكام الضلالة وجماعات البغي، وهذه هي المعركة الأزلية الأبدية بين الحق والباطل، التي تتحد في الأفكار والمفاهيم وتختلف في الأشخاص والمصاديق. فقد كان أول مصداق لها يمثل الحق والعدل هو هابيل بن نبي الله آدم(عليه السلام) في قبال قابيل الذي كان يمثل الباطل والظلم، واستمر هذه المعركة إلى نبي الله إبراهيم نبي الهدى والإيمان الذي قابله النمرود حاكم الجبروت والطغيان، وصولا إلى النبي محمد رسول الحكمة والرحمة الذي قابله أبو جهل وأبو سفيان ومن لف لفهما، وقد سار الأئمة الطاهرون على نهج جدهم الرسول في ترسيخ رسالة السماء وكشف أباطيل أعداء الإسلام، وحفظ حمى الإسلام والمسلمين، وبرزت هنا المقولة المشهورة أن في كل زمان حسين ويزيد، بل قال أحد المفكرين المعاصرين: إن الإمام الحسين لم يكن ليقاتل شخصا اسمه يزيد بن معاوية، وإنما قاتل المنهج الأموي الضال المضل، وصدح

بمنهج الإسلام الأصيل الواضح. ويظهر ذلك من أقوال الإمام الحسين وشعاراته الخالدة ومنها، ((وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي رسول اللّه وأبي علي))[١] وفي سبيل ذلك ضحى الإمام الحسين بروحه الطيبة ودمه الطاهر وأهل بيته الكرام وأصحابه الأمجاد.

وفي وقتنا الحاضر تستمر المعركة بين طرفي الحق والباطل، وممّا لا شك فيه أنّ الحق يتجلى بأبهى صوره في المرجعية الدينية العليا التي تعد الامتداد الطبيعي لمنهج الرسل والأنبياء والأئمة الطاهرين(عليهم السلام)، وذلك بما صدر منها من مواقف ناجعة ورائعة، رائدة وخالدة، كانت لها الأثر الكبير في رد الظلم والطغيان، ودفع الشبهات والأباطيل التي يثير المغرضون ممّن يدّعون الإسلام وهو منهم براء.

لقد تعددت الرؤى الحكيمة التي جادت بها هذه المرجعية الرشيدة المتمثلة بسماحة آية اللّه العظمى السيد علي الحسيني السيستاني بتعدد الابتلاءات التي تعرض لها المجتمع الإنساني والإسلامي، فكانت هذه الرؤى بلسما لجراحات الناس، يحكي عن قيادة ربانيّة ورعاية أبوية تشمل الجميع من دون استثناء، ولا غرابة في ذلك فهو من مدرسة أمير المؤمنين (عليه السلام) التي تقول: ((الناس صنفان إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق))[٢]

في ضوء ما تقدّم ارتأى الباحث كتابة بحثه هذا والذي يتضمن التعريف بالمرجعية الدينية، وبيان أهميتها، ومن ثمّ مرجعية السيد السيستاني(دام ظله)، ثم انتقاء عدد من المواقف التاريخية التي صدرت من مرجعية السيد السيتساني(دام ظله) التي كان لها أبلغ الأثر في تهدئة الأوضاع وحفظ النفوس، وقبل كل ذلك حفظ تعاليم الإسلام وإظهاره بصورته البهية الأصيلة، ودرء الشبهات عنه.

المطلب الأول: مفهوم المرجعية الدينيّة وأهميتها:

المرجعية من الناحية اللغوية مركبة من المرجع وياء النسبة وتاء المبالغة وأصل كلمة المرجع هو رجع أو الرجوع بمعنى عاد إلى كان من البدء.[٣]

أما من الناحية الاصطلاحية، وهي: ((الجهة المتولية بشؤون الأمة أو الطائفة بإجماعها وبيدها الإدارة لتدبير أحوالها وأوضاعها الدينية))[٤]

أما المرجع الديني: فهو المجتهد العادل الذي يرجع إليه الناس للفتوى لعبادتهم ومعاملاتهم.[٥]

وقد استحدث الشيعة مصطلح (المرجعية الدينية العليا) يطلق على من بلغ رتبة الاجتهاد والأعلمية من الفقهاء[٦]، أما المرجع الأعلى: فهو لقب يطلق المرجع الأعلى على أكبر المجتهدين علما ومقلدين وخبرة، وهو حائز على إقرار المراجع والمجتهدين الكبار الآخرين.[٧] واليوم يطلق هذا اللقب بكل جدارة على سماحة السيد السيستاني(دام ظله) لكونه يمتلك المؤهلات والاستحقاقات كافة التي تجعله يوصف به.

- أهمية المرجعية وضرورتها في الحفاظ على روح الإسلام:

تنبع أهمية المرجعية الدينية من كونها الامتداد الحقيقي اللازم للإمامة، التي تؤلف بدورها الامتداد الطبيعي للنبوة في أبعادها المختلفة، وخاصة في بعديها العقائدي والسياسي، وقد رسم هذا الامتداد للمرجعية الطريقة التي تنتهجها وتسلكها للتعامل مع جميع الظروف والأوضاع، بما فيها الأوضاع والظروف السياسية، وحسب الشروط والخطوط التي وضعها أهل بيت عليهم السلام، فقد مرَّ أهل البيت عليهم السلام بمراحل وأدوار ذات ظروف وعوامل مختلفة، جعلتهم يتصرفون مع تلك الظروف بما يتلاءم مع شروط كل مرحلة ودور.

لقد تحمل العلماء والمجتهدون ورواة الحديث أعباء المسؤولية في تأدية الوظائف التي كانت تقدمها المرجعية المعصومة للناس ، ولعل صيغة النواب الأربعة كانت تمهيدا للانتقال من قبول اراء المجتهد المعصوم إلى طاعة المجتهد غير المعصوم فقد كان القادة في البدء رواة الحديث ، إن المرجع الديني في المذهب الشيعي الإمامي يعد نائب الإمام المعصوم في زمان الغيبة الكبرى وهذا الكيان الديني الذي خلفه الإمام الغائب جاء بحسب حديث الإمام المهدي المنتظر،[٨] ((وأمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجة عليكم وأنا حجة اللّه عليكم))[٩]. فأعطاهم هذا النص منزله من ترجح إليه الأمة في معرفة الحوادث والنوازل الجديدة وذلك يستبطن معرفتهم الدقيقة بالعلم وبذلك مارس المتصدون لتأدية مهام المرجعية الدينية هذه الوظائف بقدر الوسع الإنساني ، وكانت بغداد من ٣٢٩ـ ٤٤٧ مقرا لهذه المرجعية وقد مارست فيها مهام عده منها:

١. إن الإسلام رسالة حياة وتنظيم خالد لكل شؤون المجتمع، وحينئذ فهناك مواقع في عملية التربية الكبرى لا يمكن تسليمها إلا لمرجع مجتهد بالشريعة عالم بخفاياها وروحها وتعاليمها حتى يملك كلمة الفصل من خلال ذلك، فالقيادة والقضاء مثلا لا تتمان من دون فقيه مجتهد متضلع في الشريعة.[١٠]

٢. تولي مسؤولية تبليغ المعرفة الدينية إلى الأمة.

٣. إدارة حوار الاختلافات والجدل الكلامي والفقهي والمنهجي مع المدارس الإسلامية في بغداد.

٤. مواجهة السياسات التاريخية التي طبقت ضد المعرفة الشيعية.

٥. إن المرجعية الدينية – على الرغم من الظروف غير الجيدة ـ التي عاشتها إلا أنها أنجزت تراثا علميا ضخما فلقد أحصى للشيخ المفيد قرابة (٢٠٠) كتاب ورسالة في الفقه والكلام والحديث ، وأحصى للسيد المرتضى قرابة (٧٠) مصنفا وقد انشغلت المرجعية في النجف بإعادة تصنيف التراث الشيعي (في مجال الفقه/ الحديث/ الكلام/ التفسير . . . الخ) كما هو الحال كله في انجازات الشيخ الطوسي والسمات التي تميز مؤلفاته كالدقة والاصالة والجمع المنظم.

٦. لقد تبنت المرجعية الدينية الاجتهادية منذ نشأتها من ٣٣٠هـ حتى الآن مقولة استمرار الاجتهاد ـ ولكن لم تعتمده هدفا بلا آليات ووسائل محكمة بل مع ضبط محكم للأدوات والممارسة الاجتهادية، لذلك تستبعد المرجعية الشيعية اغلب الأصول التي تتعارض فيها الظنون المتقابلة والآراء ووجهات النظر التي تتمتع كلها بدرجة واحده من المقبولية من جهة الدلالة كالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة ، لذلك فان عملية الإفتاء الشرعي في الوسط الشيعي عملية منضبطة جدا ، فلا تقبل الفتوى من غير المجتهد الجامع للشرائط ، وبذلك لم تبرز ظاهرة فوضى الإفتاء في الوسط الشيعي في حين لاتزال هذه الفوضى ماثلة في الوسط الفقهي غير الشيعي.

٧. قرنت المرجعية الشيعية بالاجتهاد ((قضية التقليد)) الذي اعفي غير القادر أو من لم تتح ظروفه إن يتوصل إلى درجة الاجتهاد من الإلزام بالاجتهاد ، وأجازت له العمل على وفق افتاء من يراه متمكنا من حملة درجة المجتهدين المعترف بهم ، وبذلك شكلت ثنائية الاجتهاد والتقليد واحده من وسائل الضبط الاجتماعي والسياسي فضلا عن الضبط المعرفي الديني وهنا نلاحظ الوظيفة المركبة من ((بقاء الاجتهاد مستمرا ، والضبط في هذه امتلاك أدواته ، وحصر الإفتاء بأهل العلم بعد تشخيصهم

أكاديميا)) بحيث تمنع هذه الوظيفة فوضى الإفتاء وتعدد الفتوى إلى حد التضاد إضافة إلى إلزام إتباعهم بالانقياد التام والطاعة الذاتية لمقررات المرجعية الشيعية.

٨. تركز المرجعية الدينية بإصرار شديد ومتابعة جادة على خصائص العفة والنزاهة والسلوك القويم وتجعل للبناء الروحي والأخلاقي مكانه مهمة ، وتقرر إن صفة العدالة شرط في إمامة الصلاة وتقليد المقلد ، وترصد أروقة المرجعية من بين روادها من يكون أكثر قدره على جهاد النفس وبناء الذات بناء عصيا على إمراض العصر وأهمها الفساد والنزوات البشرية السلبية ، لذلك فإنها ترسم دائما برنامجا للتطهير الذاتي وبناء القيم النبيلة في السلوك الإنساني ويتدرج قادة الرأي الشيعي في مدارج الهيكل المرجعي بحسب امتلاكهم هذه الصفة وصنعة العلم والعمق في التحليل فيتدرجون مدارج الرقي حتى يبلغوا مرحلة الشياع بأنهم مؤهلون لكن يكونوا من قادة المجتمع الشيعي ، فالقادة لا تختارهم الطبقة الحاكمة ، ولا اختيار العامة ولا توصية سابقة ممن سبقهم إنما يتجلى الترشيح من التركيز فقط على المؤهلات الشخصية والعلمية والقيمية.

٩. تمارس المرجعية الدينية وظائفها في جو من الاستقلال التام عن الحكومات والمؤسسات والأحزاب والقوى الاجتماعية ، وتصر إن يكون الجانب المالي في الحوزة حصرا من المتطوعين لذلك فأنها تأخذ قرارها مستقلة عن كل مؤسسات الضغط ، ويكون موقفها الإفتائي والعملي مبنيا على مراقبة اللّه والخشية منه ومراعاة المصالح الحقيقية للمجتمع والأخذ بنظر الاعتبار متطلبات المستقبل بقدر الوسع، الا انها لا تزال بحاجة الى مزيد من الاستشرافات.

١٠. ومن وظائفها ممارسة النشاط السياسي والاجتماعي.[١١]

١١.وللباحث أن يزيد على ما تقدّم أنّ المرجعية الدينية تعد الجهة الوحيدة التي تحمل رؤية واضحة وارتباط وثيق ومعرفة عميقة وتدبّر واع بالمصادر التشريعية، فضلا عن التدرّج المعرفي في تحصيل رجالاتها والذي يضمن لهم عملية استنباط الأحكام الشرعية ورعاية شؤون الأمة.

ممّا تقدّم يمكننا القول أنّ المرجعية الدينية في النجف الأشرف أعلى سلطة روحية دينية للشيعة في كل أنحاء للشيعة في كل أنحاء العالم، وهي ترتبط ارتباطا عقائديا بالمذهب الشيعي الإمامي.[١٢] فهي الحافظة للإسلام وكيان المسلمين وتدافع عن حقوقهم وترعى مصالحهم وتدير المدارس الدينية ومراكز التعليم والثقافة، وتعد الفقهاء والنواب الحاصلين على أذونات شرعية، ومراجع التقليد، كما تنهض المرجعية الدينية بمهمة إعداد القادة الروحانيين القادرين على الوقوف دون انهيار المسلمين وخرابهم في العقيدة والفكر والمحافظة على هويتهم ودينهم والدفاع عنه أمام الحكومات والسلطات، وتقوم بمهمة تفقيه المسلمين وتوعيتهم بالدين.[١٣]

إنّ هنالك حاجة ماسّة جدًا لسلطة عُليا تقوم على إدارة شؤون المجتمع وتسيير أموره العامّة؛ وذلك لتحقيق التناسق بين الاحتياجات الاجتماعية المتفاوتة، وأساليب إشباع هذه الاحتياجات، وتجميع القوى الفعّالة وتوجيهها الوجه التي تؤهلها لخدمة المجتمع على النحو الأكمل، كما أنّ هذه السلطة ضرورية لإشاعة العدل بوجه الظلم والاعتداء على الآخرين وحقوقهم، وبالتالي يحتاج المجتمع إلى الموقف فيها رأيا موحدا يمتلك القاطعية والواقعية، والقدرة على التنفيذ.[١٤]

فإنّ السلطة التي تجمع بين المحافظة على السلم الأهلي والعدل بين السكان هي الأمثل بطبيعة الحال؛ لأنه الغرض الأول لهذه السلطة السياسية، والتي تكون هي الواسطة في إيجاد الحكم الصالح.[١٥]

المطلب الثاني: مرجعية السيد السيستاني(دام ظله):

- السيد السيستاني(دام ظله):

هو السيد علي بن السيد محمد باقر بن السيد علي بن السيد محمد ، ولد سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، ونشأ في أسرة علمية دينية ملتزمة، كانت من الأسر الحسينية العلوية التي تسكن مدينة أصفهان، بدأ في الخامسة من عمره بتعلم القرآن الكريم، ثم دخل (مدرسة دار التعليم الديني) لتعلم القراءة والكتابة ونحوها، فتخرج فيها متعلما كذلك فن الخط. وفي عام ١٣٦٠ه بدا بتوجيه من والده بدراسة مقدمات العلوم الحوزوية، وفيها أتمّ كتب المقدمات ومنها كتاب (شرح الألفية) للسيوطي، و(المغني) و(المغني) لابن هشام و(المطوّل) للتفتازاني و(شرح اللمعة الدمشقية) و(القوانين)، والسطوح العالية، ومنها كتاب (الرسائل) و(المكاسب) و(الكفاية) كما قرأ جملة من الكتب الفلسفية منها كتاب (شرح المنظومة) للسبزواري، و(شرح الإشراق)، و(الأسفار) و(شرح الإلهام)، كما حضر بحوث الخارج للمرحوم الميرزا مهدي الأشتياني، والمرحوم الميرزا هاشم القزويني(قدس سرهما) وذلك عام سنة(١٣٦٥ه).[١٦]

وفي أواخر عام (١٣٦٨ه) هاجر إلى قم المقدسة لإكمال دراسته، فحضر عند العلمين الشهرين السيد حسين الطباطبائي البروجردي في الفقه والأصول، والسيد محمد الحجة الكوهكمري في الفقه فقط.

وفي أوائل عام (١٣٧١ه) الموافق عام (١٩٥٠م) هاجر من مدينة قم إلى النجف الأشرف، فوصل إلى مدينة كربلاء المقدسة في ذكرى أربعينية الإمام الحسين(عليه السلام)، ثم نزل النجف الأشرف فسكن مدرسة البخارائي العلمية، وحضر فيها دروس

جملة من أعلامها، منهم: آيات اللّه العظام: السيد محسن الحكيم، والسيد أبو القاسم الخوئي والعلامة الشيخ حسين الحلي(قدس سرهم).[١٧]

وفي أواخر عام (١٣٨٠ه) كتب له أستاذه آية اللّه العظمى السيد أبو القاسم الخوئي، وأستاذه آية اللّه العظمى الشيخ حسين الحلي(قدس سرهما) شهادتين ببلوغ درجة الاجتهاد، كما كتب شيخ محدثي الشيعة الشيخ آغا بزرك الطهراني صاحب الذريعة شهادة أخرى يطري فيها مهارته في علمي الحديث والرجال. وفي أوائل عام (١٣٨١ه) بدأ بإلقاء محاضراته في (الدرس الخارج) في الفقه في ضوء كتاب (المكاسب) للشيخ الأنصاري، وأعقبه بـ(شرح العروة الوثقى)، فأتمّ عدة أبواب فقهية منه.

أمّا في علم الأصول فقد بدأ بإلقاء محاضراته في عام(١٣٨٤ه) وأكمل دورته الثالثة في عام (١٤١١ه)، وقد سجّلت محاضراته جميعها من عام (١٣٩٧ه) .

وقد آلت إليه المرجعية بعد وفاة السيد أبو القاسم الخوئي(قدس سره)، وكانت الزعامة مقسومة بينه وبين السيد عبد الأعلى السبزواري(قدس سره)، وبعد سنة واحدة فقط توفي السيد السبزواري(قدس سره)، فأصبح السيد السيستاني المرجع الأعلى في العراق عام (١٩٩٣م).[١٨]

إنّ شخصية السيد السيستاني(دام ظله) وتوجهاته تشبه إلى حد ما شخصية أستاذه السيد الخوئي(قدس سره) وتوجهاته العلمية إذ يمكن القول إنّ مرجعية السيد السيستاني(دام ظله) هي الامتداد المماثل لمرجعية السيد الخوئي.[١٩] أمّا مؤلفاته فقد بلغت (٤٤) مؤلفا[٢٠].

سماته وخصائصه الشخصيّة والعلميّة:

اتسم سماحة السيد السيستاني(دام ظله) بجملة خصال كوّنت معالم شخصيته التي استطاعت أن تنفذ إلى قلوب الملايين، بعد أن عالجت بخلقها الرفيع وأدبها الربّاني العديد من المشاكل التي واجهت الأمّة، وتجاوزت العديد من صراعاتها الراهنة، ومن أهمّ سامته الشخصيّة:

١. الانصاف واحترام الراي الآخر.

٢. الأدب في الحوار.

٣. الخلق التربوي.

٤. الورع والتقوى.

٥. النتاج الفكري.

٦. الربط بين الفكر الحوزوي والثقافات المعاصرة.

٧. الإبداع والتجديد.

٨. إلمامه بمقتضيات عصره.

٩. النظرة الاجتماعية للنص.

١٠. المقارنة بين المدارس الفكرية والفقهية المختلفة.[٢١]

فضلا عن ذلك فقد عُرف سماحة السيد السيستاني برجاحة عقله، ولديه اهتمام كبير واطلاع واسع على الفلسفة والآراء والنظريات المعاصرة، فهو يعرف الشيوعية والرأسمالية بدقائقها، وكذلك يعرف الوجودية بدقائقها، وكما أنّ لديه ولعا خاصا بالحكمة والفلسفة، فقد درسهما دراسة مجدية حتى عُدّ أحد الأركان لعلم الفلسفة في القرن العشرين، كذلك عُرف سماحته بنفاذ البصيرة، وخاصّة فيما

يتصل بالشأن السياسي، وحظي باحترام جميع الأطراف حتى سلطات الاحتلال الأمريكية، ومجلس الحكم الانتقالي، رغم تضارب مصالحهم؛ ما جعل سلطات الاحتلال والأمم المتحدة تأخذ بملاحظاته، وتتجنب إثارة حفيظته، فقد تراجعت عن بعض خططها بعد إصدار سماحته لفتاوى ضدّ القرارات المتخذة من قِبل هذه السلطات.

وتعدّ مرجعيته اليوم مرجعية شاملة من حيث كثرة مُقلديه فيما يضطلع بأعبائها على شتى الصُعُد الاجتماعية، من حيث إدارة الحوزة النجفية من إنفاق ومشاريع وغيره.[٢٢]

إنّ المتتبع للواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم بنحو عام؛ والشيعة بنحو خاص، يدرك تماما أنّ مرجعية السيد السيستاني تقوم بالعديد من الوظائف والواجبات ممّا جعلها تحمل أمانة الرسالة المحمدية بكل جدارة، وتمارس الأدوار والمواقف والمراحل ضدّ حركة الا نحراف والتدهور مثلما مارسها أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

فضلا عن ذلك فقد راعى السيد السيستاني الحكومات المتعاقبة على السلطة من يوم سقوط النظام البائد في العراق ولحد وقتنا الحاضر بالتوجيه والنصيحة والإرشاد، والملاحظات القيّمة التي تصبّ في مصلحة الأمّة والوطن، وبما ينفع المسار السياسي في هذه اللحظات السياسية الحاسمة التي تمرّ على البلاد، بما فيها من مآسٍ وأحزان، وخاصّة فيما يتعلق بتردي الوضع الأمني، فقد كان وما زال بحق صمّام الأمان في عدم انجرار البلاد إلى حرب طائفية مؤلمة تحرق الأخضر واليابس، رغم الاعتداءات الصارخة التي انصبت على العراقيين وباستمرار من التكفيريين والظلاميين أتباع أزلام صدام، وترويع الأهالي على اختلاف الصُعُد، من قتلٍ وذبحٍ وسلب ونهب، وتهجيرٍ بالقسر، وتدمير للمساجد، ولمراقد الأئمّة والعلماء والصالحين والأولياء، بما يندى له

الجبين، وكان من الممكن أن يُردّ على هذه الأفعال الظالمة بما يعادلها أو أكثر، لولا إصرار مراجعنا العظام وخصوصا سماحة السيد السيستاني.

وممّا ينبغي ذكره أنه نجح بهذه السياسة الحكيمة؛ إذ أفشلت مخططات المنحرفين الذين يعملون في الليل والنهار على إثارة النعرات الهدامة، والتكفير الظالم، والمروق عن الأخلاق الحميدة.[٢٣]

المطلب الثالث: تجلّيات الحكمة القيادية عِند السَّيِّدِ السِّيستانيّ(دام ظله)

تعد شخصية السيد السيستاني(دام ظله) من الشخصيات القلائل التي كوّنت مفصلاً يستدعي التوقف عنده والبحث في طبيعة ومكنونات هذا العالم الذي يتمتع بخصائص روحية ومثالية عالية، طالما حث عليها أهل البيت(عليهم السلام) حتى جعلت منه عالما ربانيا بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، فكان رجل العلم والتقوى؛ والحكمة والدراية؛ رجل المواقف الصعبة والثابتة على الحقن رجل الاعتدال في زمن التعصّب وإثارة الفتن، رجل الإسلامية قلبا وقالبا، مرّ بمختلف المواقف الحرجة فكان السيد الكبير والعالم الصبور النحرير، والورع المحتسب، والزاهد التقي والمحترم لآراء الآخرين، عشق العلم والمعرفة فقدّس حرية الرأي والكلمة البناءة الهادفة إلى إظهار الحقيقة وجلاء الشبهات.[٢٤]

أنّ الوقوف على أعتاب هذه الرموز الكبار والقامات الشامخة من أمثال سماحة السيد السيستاني (دام ظله) لا يمكن لمثل هذا البحث الموجز أن يحيط بمواقفه الخالدة، وآرائه السديدة، وقرارته السديدة، ومنجزاته العديدة، لذا سنكتفي بذكر بعض المواقف التاريخية لهذه الشخصية العظيمة، ومراعاة للاختصار سنكتفي بذكر أربعة مواقف تاريخية لسماحة السيد السيستاني(دام ظله)، جرت عقب أحداث عصيبة كادت تعصف بالأمّة الإسلامية عموما، والشعب العراق بنحو خاص، وهي:

١. المطالبة بكتابة الدستور العراقي وإجراء لانتخابات بعد تغيير النظام في بعد عام ٢٠٠٣م.

يعد السيد السيستاني(دام ظله) من المراجع المعتدلين والواقعيين الذين يكيفون المواقف الدينيّة مع الوقائع السياسية على الأرض، فهو لم يتعامل مع قوات الاحتلال ورفض لقاء الحاكم المدني في العراق (بول بريمر) على الرغم من إلحاح الأخير وتوسيط عدد كبير من السياسيين العراقيين كان آخرهم مسعود البرزاني زعيم الحزب الديمقرطي الكردستاني. والوقت نفسه لم يدع إلى مقاومة قوات الاحتلال بالعنف. وإنما اكتفى بموقف سياسي لا يضعف العملية السياسية التي جرت في العراق بتشكيل مجلس الحكم في ٢٠٠٣/٧/١٣م، ولكي يتناغم مع الشعار الأمريكي في العراق لإقامة الديمقراطية في العراق، وقد كان على رأس الأهداف التي يروم سماحة السيد السيستاني(دام ظله) تحقيقها هو كتابة دستور عراقي بأيدٍ عراقيّة، ورفض رفضا قاطعا قبول دستور مستورد من الخارج يحمل أفكار صهيونية استعمارية يهودية بصبغة إسلامية بحجة عدم إمكانية كتابة دستور بأيدٍ عراقيّة لأن البلد يعيش حالة من الفوضى ولا يمكن حصر أفراده الذين يعوّل عليهم للمشاركة في الانتخابات.[٢٥]

في ظل هذه الأجواء بادر سماحة السيد السيتساني(دام ظله) بحله الفريد الفذ وبخطوته الجريئة التي راهن العديد على فشلها لصعوبة تطبيقيها في تلك الظروف العصيبة، وأصر سماحته على ضرورة إجراء الانتخابات، ولما سئل عن آلية حصر أعداد أبناء الشعب العراقي، فأجاب بأن هناك سبيلاً ناجعا لذلك وهو اعتماد البطاقة التموينية التي كانت قبل ذلك معتمدة من لدن الأمم المتحدة في برنامج النفط مقابل

الغذاء، وبذلك تكون هذه الإحصائية جاهزة ودقيقة ومعترف بها عالميا ولا يمكن ردّها، وبالفعل تم قبولها من الأطراف جميعا داخليا وخارجيا.

وفعلا أجريت الانتخابات وكتب الدستور بأيدٍ عراقية، وإن كان ما حصل لا يلبي مستوى الطموح، ولكنه أهون وأفضل بكثير ممّا أريد له.

والسيد السيستاني(دام ظله) دعا لكتابة الدستور بطريقة تتناغم مع سياسة الطرف الآخر (المحتل الأمريكي) وهي الطريقة الديمقراطية التي تتيح للشعب اتخاذ قراراته بنفسه وبحريته، فلذ طالب بكتابة الدستور بأيدٍ عراقية كما كتب الصلح بيد الإمام(عليه السلام)، وبذلك تمكن السيد السيستاني(دام ظله) من تحقيق مطلبه بكشف السياسة الأمريكية المخادعة من جهة، وكتابة البنود التي تتناسب والتشريع الإسلامي ــ بالقدر المتيقن ــ من جهة أخرى.

والجدير بالذكر أن سماحة السيد السيستاني(دام ظله) كان يعمل بقوتين القوة الأولى ما يمتلكه من خبرة ومعرفة ودراية منبثقة من استيعابه للموروث الكبير من القرآن الكريم وسيرة الرسول ص وأهل بيته المعصومين، ورواياتهم الشريفة، فضلا عن ثقافته الواسعة، واطلاعه الفياض، والقوة الثانية هي التسديد الإلهي الواضح والمتجلي في دقة قرارته، وحكمتها وخطورتها و نجاحها.

٢. إصداره لفتوى الجهاد الكفائي بعد أحداث سقوط الموصل في سنة ٢٠١٤م.

قد لا نبالغ إذا قلنا أنه لم يكن أحد في العالم يتوقع أن سماحة السيد السيستاني(دام ظله) هو الذي يبادر بإصدار فتوى يدعو فيها الناس إلى الجهاد الكفائي، إذ يعد سماحته من أكثر القادة والمراجع الذين يدعون إلى السلم وحقن الدماء، والابتعاد عن المواجهة التي تستبع إراقة الدماء، ولكنه كعادته فاجأ الجميع، المخافين قبل

المؤالفين، والأعداء قبل الأصدقاء، وقد توافرت في هذا القرار ما توافرت في غيره من القرارات المصيرية للسيد السيستاني(دام ظله)، وهي اتصافها بالخصائص الآتية:

- عنصر المفاجئة.
- كونه الحل الناجع لمشكلة عصيبة تهدد أمن البلاد والعباد.
- كونه الحل الأمثل للحفاظ على وحدة المسلمين وغيرهم.
- الاستجابة الكبيرة والعظيمة من الجميع على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وديانـاتهم.
- تعزيز ثقة الأمة بحكمة قيادتها، وجدارتها بحمل المسؤولية الثقيلة الملقاة على عاتقها.

لقد كان الواقع الذي يعيشه العراق قبل صدور فتوى الجهاد من المرجعية الدينية العليا ينبىء بحدوث كارثة إنسانية لم يسبق لها مثيل في تاريخ الإنسانية، فقد اجتاحت جماعة همجية باسم الإسلام وقد سيطرت على بعض أجزاء العراق وكانت تعد العدة لاجتاح باقي أجزائه، فبادر سماحة السيد السيستاني(دام ظله) بإصدار فتاواه التي سيبقى التاريخ ينحني لها إجلالا وإكبارا لما حققته من نصر وعزة وشموخ لا للمسلمين فحسب بل لكل أبناء الشعب العراقي بأطيافه وديانـاته المتنوعة،

أما مجتمعنا العراقي المعاصر فقد أبلى بلاءا حسنا وكان بقمة الوعي والمسؤولية حينما زحف بكل أطيافه ومناطقه وفئاته العمرية هبة رجل واحد ذي عقيدة صلبة وإيمان راسخ مستجيبة لفتوى قيادتها الحكيمة ومرجعيتها الرشيدة، المتمثلة بزعيمها سماحة السيد علي السيستاني(دام ظله) ممّا جعل العدو المعتدي الغاشم يتقهقر أمام خطواته، ويجعل الأرض تتزلزل تحت أقدامهم، حتى حققوا

الانتصارات تلو الانتصارات، وهم الآن مستمرون بتقدّمهم وصمودهم مادامت وراءهم قيادة حكيمة توجههم، وعقيدة راسخة تثبتهم وإرادة صلبة تتقدمهم.

والجدير بالذكر أنّ ما ذكرناه في النقطة الأولى حاضر هنا، وهو يحضر في قرار من قرارت سماحة السيد السيستاني(دام ظله)، تسندها ركيزتان أساسيتان، الأولى علمه ومعرفته ودرايته بالأمور، والثاني التسديد والتوفيق الإلهي الذي لا يخفى على ذي لب في إصدار فتوى الجهاد من جوانب عدة، منها:

- توقيت الفتوى، فلو أصدرت بعد يوم واحد لكان العدو قد دمر البلاد وقتل العباد.
- الاستجابة الكبيرة التي لاقتها الفتوى من لدن الجميع وتفاعلهم معها.
- إصابتها الواقع كونها البديل الوحيد المناسب الذي كان حلاً ناجعا للمعضل الذي وقع في المجتمع العراقي.
- وغيرها ممّا خفي علينا من الأسرار الخفية التي يظهرها لنا المستقبل.

وفي الختام نقول أن البحث وقف على نماذج محددة مراعاة للاختصار وبما يتناسب مع طبيعة حجم البحوث، ولأننا أردنا أن نبيّن فكرة رأيناها ترتبط بالسياسة البناءة التي انتهجها أهل البيت(عليهم السلام)، وقد أفاد منها علماؤنا الأعلام بوصفهم ورثتهم بالعلم والفكر والموقف والعقيدة، فهم ينهلون من منبع عذب فرات رسمه لهم النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) إذا قال موصيا أمّته: ((إني مخلف فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا بعدي كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض))[٢٦]

ونرجو أن نكون قد وفقنا في إيصال فكرة بحثنا، والله تعالى هو المستعان وعليه التكلان، والحمد لله رب الأكوان، والصلاة والسلام على أفضل إنسان، محمد وآله أئمة الإنس والجان.

الخاتمة

بعد هذه الجولة العلمية الممتعة التي قضيتها في رحاب الإمام الحسن المجتبى(عليه السلام) ومواقفه التاريخية الملهمة، ومع سماحة السيد السيستاني(دام ظله) وقراراته السديدة والمصيرية، يمكن أن أثبّت أهم النتائج التي استخلصتها من البحث فيما يأتي:

١. أنّ السيرة العطرة للرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل البيت الطاهرين(عليهم السلام) هي سيرة معطاء زخارة بالدروس والعبر التي ينبغي لكل قائد من الاطلاع عليها ودراستها دراسة تحليلية واعية، للاستفادة من مضامينها، والسير بهديها.

٢. أنّ المواقف المشرقة والمشرّفة التي بدت في سياسة سماحة السيد السيستاني(دام ظله) هي امتداد حقيقي لنهج الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته الطاهرين(عليهم السلام).

٣. أنّ المواقف المشرقة والمشرّفة لسماحة السيد السيستاني(دام ظله) تعد دليلاً على صواب فكر أهل البيت(عليهم السلام) و نجاح سياستهم.

٤. أنّ القيادة مهما كانت واعية وحكيمة فهي لا تكفي لوحدها في إنجاح المشروع الإلهي من دون وجود قاعدة شعبية تستجيب لقيادتها، وتمتثل لأوامرها وتؤمن بتوجيهاتها، وما جرى مع مجتمع الإمام الحسن (عليه السلام) بعدم استجابتهم لإمامهم خير على ذلك، كذلك ما جرى مع مجتمعنا المعاصر باستجابته للسيد السيستاني(دام ظله)، ممّا يدعونا إلى ضرورة التمسّك بهذه القيادة الربانية المستمدة من فكر أهل البيت(عليهم السلام).

٥. أنّ العدوان الغاشم يكون ضعيفا مادامت الأمّة ملتفة حول قيادتها، مؤمنة بحكمتها وصواب رأيها، وأنّه يكون قويا ما دامت الأمّة متخاذلة متراجعة متقاعسة خانعة.

الهوامش:

[١] كربلاء الثورة والمأساة، أحمد حسين يعقوب، ط١، الغدير للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان ــ بيروت، ١٩٩٧، ص١١٤.

[٢] نهج البلاغة، خطب الإمام علي(عليه السلام)، ج٣، جمعه السيد الشريف الرضي، شرح الشيخ محمد عبده، ط١، مطبعة النهضة، إيران ــ قم المقدسة، ١٤١٢هـ. ص٨٤.

[٣] مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط١، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦م، ص٣٤٢.

[٤] باب مدينة علم الفقه، علي محمد رضا كاشف الغطاء، دار الزهراء، بيروت، ١٩٨٥م، ص٣٥٨.

[٥] الأصول العامة للفقه المقارن، محمد تقي الحكيم، ط١، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٣م، ص٥٦٣. فقه الإمام الصادق، محمد جواد مغنية، ج٦، دار القلم، بيروت ــ لبنان، ١٩٧٥م، ص٣٧٩.

[٦] ينظر، المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية (دراسة في التطور السياسي والعلماء)، د.جودت القزويني، ص٨.

[٧] ينظر: الإسلام الشيعي والدولة، محمد رضا جليلي، ترجمة: د.علي الخطيب، ط١، دار المحجة البيضاء، لبنان ــ بيروت، ١٩٩٧م. ص٣٣.

[٨] المرجعية الدينية في النجف الأشرف ومواقفها السياسية في العراق من ١٩٥٨ــ١٩٦٨(تاريخ سياسي)،د.حيدر نزار السيد سلمان، ط١، دار إحياء التراث العربي، لبنان ــ بيروت، ٢٠١٠م، ص١٨.

[٩] وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي، الحر العاملي، تصحيح محمد الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت بلا تاريخ، ص٣١٢.

[١٠] حول الشيعة والمرجعية في الوقت الحاضر، الشيخ محمد علي التسخيري، ص٨٦.

[١١] ينظر، مقالة بعنوان (المرجعية الدينية في النجف الأشرف)، للأستاذ الدكتور عبد الأمير زاهد، بتاريخ ٢٠١٢/٤/٨م

[١٢] التفتيح في شرح العروة الوثقى(التقليد)، علي الغروي، ط١، مؤسسة تراث الإمام الخوئي، إيران، ١٤١٣هـ، ص١٦.

[١٣] المصدر نفسه، ص١٧.

[١٤] ينظر: المرجعية والقيادة، السيد كاظم الحائري، ص٣١.

[١٥] يُنظر: رجل السياسة دليل الحكم الصالح، توفيق السيف، ص٢٥.

[١٦] الإمام السيستاني أمّة في رجل، حسين محمد علي الفاضلي، ط١، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١م. ص٧٣.

[١٧] المصدر نفسه، . ص٧٤ ــ ٧٥.

[١٨] يُنظر: موسوعة الأحزاب العراقية حسن لطيف الزبيدي، ص٤١٨.

[١٩] المرجعية الدينية في النجف الأشرف ومواقفها السياسية في العراق من ١٩٥٨ــ١٩٦٨(تاريخ سياسي)،د.حيدر نزار السيد سلمان، ط١، دار إحياء التراث العربي، لبنان ــ بيروت، ٢٠١٠م، ص١٩.

[٢٠] ينظر، الإمام السيستاني أمّة في رجل، ص٨٦ ــ ٨٧.

[٢١] ينظر، المصدر السابق، ص٧٥ ــ ٧٦.

[٢٢] ينظر: لا وصاية على السيستاني، محمد حسين الصغير، بحث منشور في كتاب أمّة في رجل، ص٤٢٩.

[٢٣] ينظر، دور المرجعية الدينية في إصلاح الواقع العراقي السيد السيستاني أنموذجا، د.أحمد علي عبود الخفاجي، مجلة الإصلاح الحسيني، العدد السابع عشر، السنة الخامسة، (٢٠١٧م)، ص٣٠٣.

[٢٤] المصدر نفسه، ص٩.

[٢٥] النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني(دام ظله) في المسألة العراقية، إعداد: حامد الخفاف، ط٥، دار المؤرخ العربي، لبنان ــ بيروت، ٢٠١٤. ص٣٧ ــ ٥١.

[٢٦] الانتصار، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي البغدادي(ت٤٣٦هـ)، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، إيران ــ قم المقدسة، ١٤١٥هـ. ص٨٠.

المصادر:

- القرآن الكريم.

١. الإسلام الشيعي والدولة، محمد رضا جليلي، ترجمة: د.علي الخطيب، ط١، دار المحجة البيضاء، لبنان ــ بيروت، ١٩٩٧م.

٢. الأصول العامة للفقه المقارن، محمد تقي الحكيم، ط١، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٣م

٣. الإمام السيستاني أمة في رجل، حسين محمد علي الفاضلي، ط١، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١م.

٤. الانتصار، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي البغدادي(ت٤٣٦هـ)، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، إيران ــ قم المقدسة، ١٤١٥هـ.

٥. باب مدينة علم الفقه، علي محمد رضا كاشف الغطاء، دار الزهراء، بيروت، ١٩٨٥م.

٦. التفتيح في شرح العروة الوثقى(التقليد)، علي الغروي، ط١، مؤسسة تراث الإمام الخوئي، إيران، ١٤١٣هـ.

٧. حول الشيعة والمرجعية في الوقت الحاضر، الشيخ محمد علي التسخيري ، المجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام)، ط٢، إيران ــ قم، ١٤٢٧هـ.

٨. دور المرجعية الدينية في إصلاح الواقع العراقي السيد السيستاني أنموذجا، د.أحمد علي عبود الخفاجي، مجلة الإصلاح الحسيني، العدد السابع عشر، السنة الخامسة، (٢٠١٧م)

٩. رجل السياسة دليل الحكم الصالح، توفيق السيف، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان ــ بيروت، ٢٠١١م.

١٠.فقه الإمام الصادق، محمد جواد مغنية، ج٦، دار القلم، بيروت ــ لبنان، ١٩٧٥م.

١١.كربلاء الثورة والمأساة، أحمد حسين يعقوب، ط١، الغدير للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان ــ بيروت، ١٩٩٧م.

١٢.لا وصاية على السيستاني، بحث منشور في كتاب أمّة في رجل، محمد حسين الصغير، مؤسسة البلاغ للطباعة، لبنان ــ بيروت، ٢٠١١م.

١٣.المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية (دراسة في التطور السياسي والعلماء)، د.جودت القزويني، ط١، دار الرافدين للطباعة والنشر، لبنان ــ بيروت، ٢٠٠٥م.

١٤.المرجعية الدينية في النجف الأشرف، للأستاذ الدكتور عبد الأمير زاهد، ، مقالة منقولة من عبر موقع http://www.alnoor.se/article.asp بتاريخ ٢٠١٢/٤/٨م.

١٥. المرجعية الدينية في النجف الأشرف ومواقفها السياسية في العراق من ١٩٥٨ــ١٩٦٨(تاريخ سياسي)،د.حيدر نزار السيد سلمان، ط١، دار إحياء التراث العربي، لبنان ــ بيروت، ٢٠١٠م.

١٦. المرجعية والقيادة، السيد كاظم الحائري، مكتبة الكلمة الطيبة، العراق ــ بغداد، ط٢، ٢٠١٢م.

١٧.مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط١، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦م.

١٨.موسوعة الأحزاب العراقية، د. حسن لطيف الزبيدي، مؤسسة المعارف للمطبوعات، لبنان ــ بيروت، ٢٠٠٧م.

١٩.النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني(دام ظله) في المسألة العراقية، إعداد: حامد الخفاف، ط٥، دار المؤرخ العربي، لبنان ــ بيروت، ٢٠١٤.

٢٠.نهج البلاغة، خطب الإمام علي(عليه السلام)، ج٣، جمعه السيد الشريف الرضي، شرح الشيخ محمد عبده، ط١، مطبعة النهضة، إيران ــ قم المقدسة، ١٤١٢هـ.

٢١.وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي، الحر العاملي، تصحيح محمد الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.